نظام الحكم والاسرة والمرأة والتشريع الاجتماعي والعدالة الاجتماعية في مصر القديمة

على رأس الحكم في مصر القديمة (ملك). هذا الملك وبفعل اتساع مصر وتكوينها الجغرافي الذي كان يضم ما بين الدلتا الواسعة القريبة من البحر الابيض المتوسط بسكانه وحضاراته وتجارته وبين الوادي وضيقه وانفتاحه على أفريقيا، فإنّ الحاجة كانت ماسة لتوحيد الدلتا والوادي وإقامة نظام سياسي قوي. هذا النظام لابدّ له من رأس مسيطر لم يستطع أن يسوس بالفعل وقد تمثل ذلك بالملك ذاته.

مثل هذا الملك وما أنيط به من أن يحمل على رأسه تاج مصر (دلتا ووادياً) كان لابدّ له من أن يكون شخصية غير عادية أو في الحقيقة خارقة. ومثل هذه الصفة في الملك آمن بها المصري العادي في القديم، إذ إنّ انساناً بمواصفات أرضية لا يستطيع أن يوحد شمال الوادي وجنوبه. لذا فالملك المصري أو فرعون مصر كان يمثل الشمس والنيل. أي في الوقت الذي تكون فيه الشمس (رع) محرقة فإنّ النيل رحيم.

جمع الحاكم في مصر القديمة في سلوكه بين قسوة الشمس وحنو النيل. ولكنّه ظلّ ابن (رع) أي ابن الإله الذي ينزل إلى الارض ليقترن بأم أرضية كما تقترن الشمس بالنيل نفسه، ويكون النتاج أرض مصر. وهناك اقتران مواز للاقتران بين ابن رع وبين الام الارضية ليولد الملك الذي نصفه إله ونصفه انسان. ويعود الملك للاقتران ثانيةً بأبيه رع (الشمس). فالملك إذن مقدس، وكان شخص فرعون الإلهي يعتبر أقدس من أن يخاطبه أحد مباشرةً. فمن كان بشراً عادياً لا يستطيع التكلم مع الملك، إنّما هو يتكلم (في حضرة) الملك وعلى المرء أن يلجأ إلى أساليب من اللف والدوران ليتجنب الإشارة المباشرة إلى الملك[1].

ومثل هذه القدسية مكنت الملك المصري في القديم من أن يحكم وفق الحق الإلهي المطلق في الوقت الذي كان يضمن لأحكامه أن تكون قاطعة وأن يحتفظ كذلك ببعد كاف عن الناس، بل عن أقرب المقربين إليه، وذلك لكي تكون حياته الخاصة ومفرداتها اليومية محجوبة وصعبة الاختراق إلى الحد الذي كان لا يسمح

---

(1) ...

بمس جسم الفرعون. فإذا حدث مثل هذا التقارب فإنّ (اللعنة) لا بدّ من أن تنزل على من ارتكب فعل التقرب والملامسة للملك (فالافعى المنتصبة على جبين الملك ساحرة تنفث اللهب وتقي شخص الملك من اقتراب الاناس الذين لم يخولوا بذلك[1].

ولما كان للملك المصري القديم مثل هذه المواصفات وهو ابن الشمس والنيل فإنّه يهب الامان لأهل مصر وذلك بإشاعة العدل بالدلتا والوادي، أي تحقيق الوحدة السياسية وهو في ذات الوقت مصدر المطر والخصب ودرء الامراض والافات عن الإنسان المصري وعن بيته وحقله. لذا فإنّ أقسى ما تعرض له نظام الحكم في مصر القديمة هو تدني قدرة الملك على تدبير شؤون مصر السياسية والحربية. وكما كان شخص الملك مشحوناً بطاقة هائلة خطرة، وكانت مسؤولياته العليا تتطلب علماً ومقدرة فوق طاقة البشر. وقد قال أحد وزرائه الكبار: « إنّ جلالته عليم بما يحدث وبما يقع ليس في الدنيا شيء لا يعلم به... ويقول له أفراد حاشيته المتزلفون إنّك مثل (رع) في كل ما تفعل. وما يشتهيه قلبك يتدفق. فإذا رغبت ليلاً في خطة ما، تحققت عند الفجر عاجلاً. لقد رأينا العديد من معجزاتك حين طلعت علينا ملكاً للمصريين. وما كان بوسعنا أن نسمع أو نرى (كيف تمّ ذلك) غير إنّ (الاشياء) تتحقق في كل مكان. وهذا أمر خارق لقدرة البشر وهو سر الملكية المكتوم. وقد أتى زمن انقلبت فيه الدولة وتحطم الحكم وشاعت الفوضى فقيل إنّ بوح هذا السر هو الذي انتهى إلى تصدع الحكم الإلهي. لقد بلغ بالبلاد سوء الحال عندما استطاع أن يسلبها الملكية بضعة رجال، لا أخلاق لهم، وهاهو ذا سر البلاد المجهول المدى يفتضح وقصر الملك يقهر في ساعة من الزمن... لقد افتضحت أسرار ملوك مصر العليا والسفلى» [2].

ولكن كيف كانت نظرية الحكم في مصر القديمة؟ كانت نظرية الحكم في مصر مثلما كانت عليه نظرية الحكم في العالم حسب ما نستخلصه بحسب ما جرى عليه العمل في مصر. وكثير من الحقوق التي تتعلق بالارض وبحق السقي وهما حقان غير منفصلين متى ما كانت الارض خاضعة لنظام الري. إنّ هذين الحقين (الارض

---

(1) المصدر نفسه، ص 94.

(2) [illegible] 95

والماء) كانا منذ القدم في أيدي الاقوياء من الافراد ويستمسك بهما أمرهم. وكان الباقي في أيدي رجال الدين بوصفهم الهيأة الامينة على أموال الإلهة. وإلى جانب ذلك كانت نسبة أموال رجال الدين إلى أموال الكافة آخذةً في الزيادة بمرور الزمن... ولما كانت معظم أوجه الخلاف لا تنشأ الا بسبب الارض والماء أو الفتور في نشاط الفلاحين أو لتذمر آخر. وإذا لم تكن من أسباب النزاع غير ذلك فإنّ القضاء في قبضة أكبر رأس في المنطقة وهو وحده العليم بعاداتها المحلية. ولم يكن في الواقع الا كبير أصحاب الارض في المنطقة. وكما كان المصريون قليلي الانتقال ولا يوجد ما يحملهم على الهجرة الا نادراً فلم يكن هناك ما يضيرهم إذا كانت العادات وساحات القضاء غير متفقة بين منطقة وأخرى[1].

وبفعل هذه المحلية في الإدارة وقبولها في الحياة والارتباط بالارض فقد تعددت ساحات القضاء ولم يعد هناك حاجة إلى قانون عام. ولكنّ الشكليات كثيراً ما كانت ترفع إلى الملك حول ما سيحلّ بالناس من ظلمٍ طاغ قريب لو إنّ هذه الصعاب تجد إلى آذان الملك سبيلاً. وأحياناً يسمع الملك من الشعب ما يحمله على إصدار أوامر عامة لمنع أسباب شكوى الزارعين. هذه نظرية الحكم في الحكومة المصرية المحلية وهذه طرق تطبيقها عملياً[2]. يعاون الملك المصري القديم في إدارة أرض مصر وشعبها وزير وموظفون يمثلون (البيروقراطية المصرية القديمة) وفي المقدمة منهم الكتبة الذين عُدّت مراكزهم الوظيفية امتيازاً قبل أن تكون تشريفاً من الملك لما يكلفون به من مهام. وترجع هذه المكانة الوظيفية إلى ما توفره من استقرار وطمأنينة في العيش يصعب أن تتوفر لغير الموظف؛ كالفلاح مثلاً الذي تتراوح حياته بين الجفاف المهلك وفيضان النيل وبين استمراره في الكدّ لكي يوفر المال لخزينة الدولة المصرية القديمة في السلم والحرب، ناهيك لما يتعرض له من جور من أصحاب الارض ومالكي الضياع.

أما منصب الوزير فقد كان على رأس الوظائف الإدارية في الدولة المصرية القديمة. لذا فقد كان النجاح في اختياره وتزويده بالوصايا اللازمة، من قبل الملك

---

[1] مايرز، مصدر سابق، ص 68- 69.

نفسه. من الممارسات السياسية التي تدلل على رسوخ تقاليد الحكم في ذلك الزمن السحيق في القدم والاهمية، التي كان يعلقها ملك مصر على وزيره، لمعاونته في تسيير شؤون العباد والبلاد. وقد وصلت الينا بردية مدهشة من عهد الامبراطورية تحتوي كما تقول هي نفسها على صورة الخطاب الذي كان يلقيه الملك حين يعين الوزير في منصبه:« اجعل عينك على مكتب الوزير وراقب كل ما يحدث فيه. واعلم إنّه الدعامة التي تستند إليها جميع البلاد... ليست الوزارة حلوة بل هي مرّة. واعلم إنّها ليست إظهار الاحترام الشخصي للأمراء والمستشارين. وليست وسيلة لاتخاذ الناس أياً كانوا عبيداً. انظر إذا جاءك مستنصف من مصر العليا أو السفلى. فأحرص على أن يأخذ القانون مجراه في كل شيء وأن يتبع في كل شيء العرف السائد في البلد الذي جاء منه وأن يعطي كل انسان حقه. واعلم إنّ المحاباة بغيضة إلى الإله... فانظر إلى من تعرفه نظرتك إلى من لا تعرفه وإلى المقربين من الملك نظرتك إلى البعيد عن بيته. انظر إلى إنّ الامير الذي يفعل هذا سيبقى هنا في هذا المكان، وليكن ما يخافه الناس من الامير هو أن يعدل في حكمه. ارع القواعد المفروضة عليك»[1].

المجتمع المصري القديم: المرأة والتشريع والعدالة الاجتماعية

تختلف الحضارتان العراقية والمصرية في نظرتهما للحياة والموت وفي مدى الاهتمام بالتشريع القانوني أو القانون الاخلاقي. إذ في الوقت الذي نظم فيه التشريع القانوني الذي بلغ أوجه في شريعة حمورابي حياة المجتمع بمعاملاته الاقتصادية وعلاقاته الاسرية والاجتماعية، فإنّ القانون الاخلاقي هو الذي كان سائداً في مصر القديمة. إذ إنّ العرف المحلي مارس دوراً فعالا في حل المنازعات اليومية التي كان حلها أقرب إلى ممارسة (الفصل) منها إلى (الحكم) وما يرتبط به من إجراءات قضائية وشكليات قانونية. لذا فإنّ الحياة الاجتماعية في مصر القديمة كانت أكثر انقياداً للأعتبارات الاخلاقية منها للضوابط القانونية. وتحكم الاعتبارات الاخلاقية في مصر القديمة قيم اجتماعية تراوحت بين تأكيد الحياة وبين ما يناقضها من

---

[1] ديورانت، مصدر سابق، ص 93

طرف قصي لهذه القيم يؤكد الموت، الامر الذي أثر في توزع السلوك المعتاد بين هذين القطبين المتباعدين. وكان لهذا أبلغ الاثر في مدى تماسك الشخصية المصرية وردود أفعالها حيال المواقف التي تتعامل معها... في الطرف الواحد نرى التوكيد على الحياة أو الحركة والعمل ودنيا المادة وفي الطرف الاخر نرى توكيد الموت والراحة والدين... إنّ للفكر المصري فترتين مهمتين، الفترة الباكرة الشديدة التفاؤل والانطلاق والفترة المتأخرة الشديدة الامل والخنوع. وبينهما فترة طويلة من الانتقال، الذي هو أشبه بإعصار له رياح قوية تهب شرقاً، ثم مركز ساكن قلق التوازن ثم رياح قوية تهب غرباً. وقد كانت الرياح الاولى الهابة شرقاً متطرفة والرياح الاخيرة الهابة غرباً محافظة جماعية[1]. الا إنّ هذا التطرف الضاغط على السلوك العادي المعيش، في مصر القديمة، لم يكن من دون ضوابط. فقد جاء في كتاب عن آداب السلوك في تلك الفترة ما يلي: صورة الكاتب المثالية تتمثل بشاب حريص على التأديب الشديد، يتجنب بفطنة نزوات السلوك، ويسعى بالقول والفعل لوضع نفسه في المكان اللائق في الهيأتين الاجتماعية والإدارية. حينئذ لا خوف على مستقبله كونه موظف. ولا يتطرق البحث هنا إلى مبادئ خلقية كالخير والشر. فالمعايير ترتبط بصفات الرجل العالم والرجل الجاهل، التي يمكننا تأديتها بلفظتي (شاطر) و(أحمق)، وفي وسع طالب الشطارة أن يتعلمها. وهكذا نرى إنّ المرء في عمله وطموحه يزود بالقواعد والاصول. فإذا انتبه إليها كان شاطراً، جعل مسعاه في طريق الصواب بشطارته وحقق ما ينشده من نجاح بحرصه وتأدبه[2]. هذا التباعد في قيم الحياة بين تأكيد المنافع الذاتية القريبة الاجل والتطلعات الاخروية البعيدة الاجل إنّما كان انعكاساً لمدى مركزية وقوة سطوة الحكم في مصر ونجاح هذا الحكم في توحيد مصر ومنحها الاستقرار الذي في ظله يمكن للعلاقات الاجتماعية من أن تأخذ طريقها الصحيح. ولكنّ مثل هذا الانعكاس للسلوك السياسي على واقع المجتمع، واستقرار واستمرار روابطه الاجتماعية، لم يحرم مصر في القديم من حياة عائلية منظمة ذات مستوى رفيع من الوجهة الاخلاقية ومن حيث

---

[1] ما قبل الفلسفة، مصدر سابق، ص 112- 113.

[2] المصدر نفسه، ص 118.

سلطان الابوين، ولا تقل في هذا عما هي عليه في أرقى الحضارات في هذه الايام. وكان الطلاق نادراً الا في عهد الاضمحلال. وكان في مقدور الزوج أن يخرج زوجته من داره دون أن يعوضها بشيء إذا زنت. أما إذا طلقها لغير هذا السبب فكان عليه أن يخصص لها جزءاً كبيراً من أملاك الاسرة.

لقد كان الازواج يبذلون قصارى جهدهم في الإخلاص لزوجاتهم... وكان مركز المرأة عندهم أرقى من مركزها في كثير من الامم في هذه الايام. وفي ذلك يقول ماكس ملر« ليس ثمة شعب قديم أو حديث قد رفع منزلة المرأة مثلما رفعها سكان وادي النيل». فالنقوش لصور النساء، يأكلن ويشربن بين الناس ويقضين ما يحتجنه من المهام في الشوارع، من غير رقيب عليهن ولا سلاح بأيديهن، ويمارسن الاعمال الصناعية والتجارية بكل حريتهن - ولشد ما دهش الرحالة اليونان- وقد اعتادوا أن يضيقوا على نسائهم السليطات، دهشوا من هذه الحرية، وأخذوا يسخرون من الازواج المصريين الذين تتحكم فيهم زوجاتهم. ويقول ديدور الصقلي - ولعله يهدف بقوله هذا إلى السخرية من المصريين- إنّ طاعة الزوج لزوجته في وادي النيل كانت من الشروط التي تنص عليها عقود الزواج. وهذا شرط لا ضرورة للنص عليه في أمريكا. وكانت النساء يمتلكن ويورثن كما تشهد بذلك وثيقة من أقدم الوثائق في التاريخ، وهي وصية من عهد الاسرة الثالثة. حيث توصي فيها السيدة نب- سنت بأراضيها لابنائها. وقد ارتقت حتشبوت وكليوباطرة عرش مصر وخربتا كما يحكم الملوك ويخربون[1].

الا إنّ ما وصلنا من آثار تلك الفترة القديمة من حياة المجتمع المصري إنّما تمثل توجهات مختلفة في معاملة المرأة والتعامل معها إلى الحد الذي عَدّ فيه ويل ديورانت في موسوعته (قصة الحضارة)[⊗] إنّ ما ورد بالضد من المرأة ومكانتها إنّما هو انعكاس لنغمة ساخرة في الاداب المصرية القديمة، ربما كتبها رجل من رجال الاخلاق الاقدمين يحذر فيها قراءه من النساء فيقول: احذر المرأة التي تأتيك من الخارج، والتي لا يعرفها أهل مدينتها. فلا ترفع بصرك إليها إذا أتت ولا

---

[1] ديورانت، مصدر سابق، ص 95- 96.

[⊗] ديورانت، ويل، قصة الحضارة، ترجمت في الخمسينات وأعيد طبعها مرات عديدة في 42 مجلداً.

تعرفها، فهي كالدردور في الماء العميق، لا تستطيع أن تسبر غورها. واحذر المرأة إذا غاب زوجها لتكتب اليك في كل يوم. وإذا لم يكن معها شاهد عليها قامت ونشرت حولك شباكها، وما أشنعها من جريمة إذا أصغى إليها الإنسان.

أما النغمة المصرية الخالصة فهي التي نسمعها في نصيحة بتاححوتب لابنه والتي يقول فيها: «إذا كنت ناجحاً وأثثت بيتك وكنت تحب زوجة قلبك، فاملأ بطنها واكس ظهرها وأدخل السرور على قلبها طوال الوقت الذي تكون فيه لك، ذلك إنّها حرث نافع لمن يملكه... وإن عارضتها كان في ذلك خرابك" وتحذر بردية بولاق الطفل تحذيراً يشهد بالحكمة البالغة فتقول: ينبغي لك أن لا تنسى أمك... فقد حملتك طويلاً في حنايا صدرها وكنت فيها حملاً ثقيلاً وبعد أن أتمت شهورك ولدتك، ثم حملتك على كتفها ثلاث سنين طوال وأرضعتك ثديها في فمك وغذتك. ولم تشمئز من قذارتك ولما دخلت المدرسة وتعلمت الكتابة كانت تقف في كل يوم إلى جانب معلمك ومعها الخبز والجعة جاءت بهما من البيت". ويرجح إنّ هذه المكانة السامية التي كانت للمرأة إنّما نشأت من إنّ المجتمع المصري كان أميل إلى تغليب سلطان الزوج بعض الشيء. وشاهد ذلك إنّ المرأة لم تكن لها السيادة الكاملة في بيتها وكفى، بل إنّ الاملاك الزراعية كلها تنتقل إلى الاناث. وفي ذلك يقول بتري«لقد كان الزوج حتى العهود المتأخرة ينزل لزوجته في عقد زواجه عن جميع أملاكه ومكاسبه المستقبلة»[1].

ونظراً للأرتباط بين المجتمع والنيل في مصر فقد تجذر هذا النهر العظيم في الفكر المصري قديماً وحديثاً. كما حفر صورته في الشخصية المصرية على نحو ما تركه أي نهر من البصمات على شخصية أهله. ولما كان النيل يعطي ويأخذ، والطلب على الايدي العاملة في الزراعة يتطلب توافر هذه الايدي عن طريق الامتداد في الاسرة المصرية وتكاثر أطفالها، فقد زاد هذا من أهمية المرأة وكرس دور أمومتها. ولعل سيطرة المرأة على شؤونها الخاصة هي التي جعلت قتل الاطفال أمراً نادر الحدوث. ويرى ديودور الصقلي إنّ من خواص المصريين إنّ كل طفل يولد لديهم يلقى حظه الكامل في التربية والرعاية. ويقول« إنّ القانون كان

---

[1] ديورانت، مصدر سابق، ص 96- 97.

يقضي على الاب الذي يرتكب جريمة قتل طفله بأن يحتضن الطفل القتيل ثلاثة أيام وثلاث ليالي كاملة. وكانت الاسر الكبيرة تغص بالاطفال، في الاكواخ والقصور على السواء. وكان الاثرياء منهم يلقون صعاباً جمة في إحصاء نسلهم» [1].

والواقع إنّ الفكر المصري القديم لا يمكن أن يفهم دون الاخذ بالاعتبار حقيقة جغرافية هي إنّ مصر تحيطها صحراوات تفصلها عن العالم الخارجي خلا اتصالها بالبحر الابيض المتوسط. وقد كان متفقاً مع الجغرافية الحربية إنّ الإنجليز لم يدخلوا مصر عن طريق الاسكندرية بل من الطريق الواقع شرقي الدلتا بأزاء قناة نكا ودارا. وكان هذا الطريق وحده طريق مصر كلما فكرت في فتح خارجي. وكانت محاولات مصر المتكررة للوصول إلى بنت (Punt) بلاد الذهب والعاج في الجنوب على ساحل البحر الاحمر للكشف والتجارة أكثر منها للفتح، والمنطقة التي ترغب فيها في الواقع كانت بعيدة. وفيما يلي البرزخ، وراء الطريق الصحراوي المستطيل، تقع سيناء في عزلة تامة وفيها النحاس ومناجم الزبرجد والاحجار الصلبة الصالحة لنحت التماثيل، كأحجار أسوان والنوبة. وهنا تقع كذلك فلسطين وسوريا وكانت قبلة أنظار المصريين. وكانت تقطعهما الطرق الرئيسة الموصلة إلى بابل والشرق الاقصى... وصفوة القول، في الموضوعات التي جعلناها أساساً لدراسة مصر هو، إنّها بلاد تعيش في عزلة لا شبيه لها وذات كيان فريد نستطيع أن نرقب فيه المدنية المنبثقة في الغالب من صميم البلاد. نرقبها وهي تنمو وتزدهر فترة من الزمان مع تعدد في مظاهرها، لا مثيل له في بلد من بلاد العالم. ولقد حاولنا تفهم الاسباب الاقتصادية لتقدمها ذلك التقدم الغريب الذي حصل وسط المشكلات السياسية التي صطدم بها المصريون وحكامهم والوسائل التي تذرعوا بها لحلها. كما رأينا كيف أدرك المصريون تدريجياً، تبعاً لاتساع تجارتهم وبعد أطماعهم، إنّ هناك عالماً خارجياً ما وراء الصحراء جدير بأن يعرفوه. وإنّ هناك بعد ذلك بلاداً اسمها مصر يرى هذا العالم الخارجي إنّها جديرة بالفتح. كما رأينا ما

---

[1] المصدر نفسه، ص 98.

جلبتهَ معرفة ذلك من الاضطراب عندما أراد بعض الناس أن يعملوا على أساس هذه المعرفة[1].

إذن لتعرّف الفكر المصري في القديم لابد أن يكون ذلك من خلال طريقين الاول أن يتم تعرّف مصر من الخارج أي ما تركته تجارتها وحروبها وصلاتها بعوالم ما بعد الصحراوات. الا إنّ مثل هذه المعرفة كما أقر مايرز في كتابه (فجر التاريخ)، هي معرفة مضطربة ناقصة ما لم ترفد بالطريق الثاني وهو، كيف تمثلت مصر من وصل إليها وصهرت من وفد عليها. وبذلك يظل النيل والاهرامات والإنسان المصري هي المقومات الأساسيّة التي يقع عليها عبء حمل ومواصلة الحضارة.